الأقدار ، لا الاستسلام لها ، وترك الحركة والحيلة ، فإنه عجز ، والله تعالى يلوم على العجز ، فإذا غُلب العبد ، وضاقت به الحيل ، ولم يبق له مجال ، فهنالك الاستسلام للقدر ، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهنا ينفع الفناء في القدر ، علماً وحالاً وشهوداً. وأما في حال القدرة ، وحصول الأسباب ، فالفناء النافع : أن يفنىٰ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواه بأمر الله ، وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته ، وعن حَوْله وقوته بحول الله وقوته وإعانته ، فهذا الذي قام بحقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً وحالاً ، وبالله المستعان .

أسرار حقيقة التوبة :

قال صاحب المنازل : (وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التقيّة من العِزة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة ، لأن التائب داخل في الجميع ، من قوله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] فأمر التائب بالتوبة) .

والمقصود بتمييز التقيّة من العزة : أن يكون المقصود من التوبة تقوىٰ الله ، وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ، فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله على نور من الله ، يخاف عقاب الله ، لا يريد بذلك عز الطاعة ، فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً ، فلا يكون مقصوده العزّة ، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة ، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة ، وفي بعض الآثار : « أوحىٰ الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك في الدنيا : فقد تعجَّلتَ به الراحة ، وأما انقطاعك إليّ ، فقد

---

(١) سورة النور: / ٣١/ .

اكتسبت به العزّة ، ولكن ما عملت فيما لي عليك؟ قال : يا رب ، وما لك عليّ بعد هذا؟ قال : هل واليتَ فيّ ولياً ، أو عاديت فيَّ عدواً؟ » . يعني أن الراحة والعزّ حظك ، وقد نلتهما بالزهد والعبادة ، ولكن أين القيام بحقي ، وهو الموالاة فيّ والمعاداة فيَّ؟ .

فالشأن في التفريق في الأوامر بين حظك وحق ربك علماً وحالاً ، وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك ، ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم ، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس .

وأما نسيان الجناية ، فهذا موضع تفصيل ، فقد اختلف فيه أرباب الطريق ، فمنهم : من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً ، فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له ، ولهذا قيل ، ذكر الجفا في وقت الصفا جفا!! ومنهم : من رأى أن الأولى ألاَّ ينسى ذنبه ، بل لا يزال جاعلاً له نُصب عينيه يلاحظه كل وقت ، فيُحدِث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته .

قالوا : ولهذا نقش داود ـ عليه السلام ـ الخطيئة في كفّه ، وكان ينظر إليها ويبكي . وقالوا : ومتى تُهْت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق . ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدي الله عز وجل خاشعاً ذليلاً خائفاً ، وهذه طريق العبودية . والصواب : التفصيل في هذه المسألة ، وهو أن يقال : إذا أحسَّ العبد من نفسه حال الصفا غَيْماً من الدعوى ، ورقيقة من العجب ونسيان المنّة ، وخَطَفَتْه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فذِكْرُ الذنب أنفع له ، وإن كان في حال مشاهدته منّة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله، والأُنس به ، والشوق إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه ، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات ، فنسيان

الجناية والإعراض عن الذنب : أولى به وأنفع ، فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك ، ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له ، أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق : إلى وحشة الإساءة ، وحصر الجناية .

والأول يكون شهوده لجنايته منّة من الله ، منّ بها عليه ، ليؤمنه بها من مقت الدعوى ، وحجاب الكبر الخفي الذي لا يشعر به ، فهذا لون وهذا لون . وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، وبالله التوفيق وهو المستعان .

وأما التوبة من التوبة : فهي من المجملات التي يراد بها حق وباطل ، ويكون مراد المتكلم بها حقاً ، فيطلقه من غير تمييز .

فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات وأقبح الجنايات ، بل هي كفر إن أخذت على ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة ، والتوبة من الإسلام والإيمان ، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان؟ . ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنّة الله ومشيئته ، ولو خُلِّيَ ونفسه لم تسمح بها ألبتة .

فإذا رآها وشهد صدورها منه ، ووقوعها به ، وغفل عن منّة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغفلة ، ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة ، ولا جزءاً منها ولا شرطاً لها ، بل هي جناية أخرى عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى ، فما تاب إلا من ذنب ، أولاً وآخراً ، فكيف يقال : يتوب من التوبة؟ [1] .

---

(١) هذا يتماشى مع اعتقاد وحدة الوجود تمام التماشي ، لأنه يتوب قبل أن يصل إلى العرفان ، فإذا وصل إلى أن يكون عارفاً بالحقيقة : انكشف عنه الحجاب ـ بزعمهم ـ فرأى الربّ عبداً والعبد رباً!! فيتوب من التوبة التي كانت قبل العرفان .

هذا الكلام غير معقول ، ولا هو صحيح في نفسه ، بل قد يكون في التوبة علّة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك ، وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها .

وهذا أيضاً ليس من التوبة ، وإنما توبة من عدم التوبة ، فإن القَدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها ، والقدر المفقود : هو الذي يحتاج أن يتوب منه . فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين .

نعم ، ههنا وجه ثالث لطيف جداً ، وهو أن من حصل له مقام أنس بالله ، وصفا وقته مع الله ، بحيث يكون إقباله على الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له ، حتى نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها ، وطالع الجناية واشتغل بها عن الله ، فهذا نقص ينبغي له أن يتوب إلى الله منه ، وهو توبة من هذه التوبة ، لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء ـ والله أعلم ـ .

لطـائـف أسـرار التـوبـة :

قال صاحب المنازل : (ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء ، أولها : أن ينظر الجناية والقضية ، فيعرف مراد الله فيها ، إذ خلاّك وإتيانها ، فإن الله عز وجل إما خلّى العبد والذنب لأجل معنيين : **أحدهما** : أن يعرف عزّته في قضائه ، وبرّه في ستره ، وحلمه في إمهال راكبه ، وكرمه في قبول العذر منه ، وفضله في مغفرته . **وثانيهما** : أن يُقيم على عبده حجّة عدله ، فيعاقبه على ذنبه بحجته) .

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور :

أحدهما : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه ، فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة ، والإقرار على نفسه بالذنب .

الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد ، فيحدث له ذلك خوفاً وخشية ، تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها ، وتخليته بينه وبينها ، وتقديرها عليه ، وأنه لو شاء لعصمه منها ، فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه، وصفاته، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته ، وعفوه ، وحلمه ، وكرمه ، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء ، لا تحصل بدون لوازمها ألبتة ، ويعلم ارتباط الخلق والأمر ، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته ، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات ، وأثرها في الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتضٍ لأثره وموجبه ، متعلق به لابدّ منه .

وهذا المشهد يُطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان ، وأسرار القدر والحكمة ، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

فمن بعضها : ما ذكره الشيخ (أن يعرف العبد عزته في قضائه) وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء ، وأنه لكمال عزته حكَم على العبد وقضى عليه ، بأن قلّب قلبه وصرّف إرادته على ما يشاء ، وحال بين العبد وقلبه . وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم ، وهذا من كمال العزة ، إذ لا يقدر على ذلك إلا الله ، وغاية المخلوق : أن يتصرف في بدنك وظاهرك ، وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده : فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة . فإذا عرف العبد عزّ سيده ولاحظه بقلبه ، وتمكن شهوده منه ، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له ، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه .

ومن معرفة عزته في قضائه : أن يعرف أنه مدَبَّر مقهور ، ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته ، ولا توفيق له إلا بمعونته ، فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد .

ومن شهود عزته أيضاً في قضائه : أن يشهد أن الكمال والحمد ، والغناء التام والعزة ، كلها لله ، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم ، والعيب ، والظلم، والحاجة ، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله ، وحمده وغناه ، وكذلك بالعكس ، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة .

ومنها : أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هي معصية ، فإذا شهد جريان الحُكم ، وجعله فاعلاً لما هو غير مختار له ، مريداً بإرادته ومشيئته واختياره ، فكأنه مختار غير مختار ، مريد غير مريد ، شاءٍ غير شاءٍ ، فهذا يشهد عزة الله و عظمته وكمال قدرته .

ومنها : أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه ، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه (البَرُّ) وهذا البر من سيده كان من كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنّة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة ، فيبقى مع الله سبحانه ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته ، وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً ، بل في هذه الحال ، فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذي لا يَعجَل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحان باسمه (الحليم) ومشاهدة صفة(الحلم) والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب :

أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فوتها ، ووجود الملزوم بدون لازمة ممتنع .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منها إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار ، لا بالقدر ، فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحاً وابتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه (الغفار) ومشاهداً لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن يكمّل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه ، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، ولو قَدرت لقالت كقول فرعون ، ولكنه قَدَر فأظهر ، وغيرهُ عجز فأضمر ، وإنما يخلّصها من هذه المضاهاة ذلّ العبودية وهو أربع مراتب :

المرتبة (الأولى) : مشتركة بين الخلق ، وهي ذلّ الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغني عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة (الثانية) : ذل الطاعة ، والعبودية ، وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

المرتبة (الثالثة) : ذل المحبة ، فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب كما قيل :

اخضع وذِلَّ لمن تحب فليس في حكم الهوىٰ أنْف يُشَال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر[1]

المرتبة (الرابعة) : ذل المعصية والجناية .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذلُّ لله والخضوع له أكمل وأتمّ ، إذ يذل له خوفاً وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقراً وفاقة .

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذي يشير إليه القوم ، وهذا المعنىٰ أجل من أن يسمى بالفقر ، بل هو لُبُّ العبودية و سرها ، وحصوله أنفع شيء للعبد ، وأحب شيء إلى الله .

فلا بد من تقدير لوازمه : من أسباب الضعف ، والحاجة ، وأسباب العبودية والطاعة ، وأسباب المحبة والإنابة ، وأسباب المعصية والمخالفة ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والغاية من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه ، مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته ، ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده ، والحكمة مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، وقد فتح لك الباب ، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل ، وإلا فردّ الباب وارجع بسلام .

ومنها : أن أسماءه الحسنىٰ تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة

---

(١) في هامش الأصل زيادة هي :

أذل لمن أهوى لأكسب عزَّة وكم عزة قد نالها المرء بالذل
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقري السلام على الوصل

لمسبباتها ، فاسم (السميع البصير) يقتضي مسموعاً ومبصراً ، واسم (الرازق) يقتضي مرزوقاً ، واسم (الرحيم) يقتضي مرحوماً ، وكذلك أسماء (الغفور ، والعفو ، والتواب ، والحليم) يقتضي من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، ويحلم ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات ، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال ، ونعوت جلال ، وأفعال حكمة وإحسان وجود ، فلا بد من ظهور آثارها في العالم ، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، ثم يستغفرون فيغفر لهم »[1] .

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوماً ، فمن يرزق الرازق سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم ، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم ، وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدّت ، والعبيد أغنياء معافون ، فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنّة ، والتخصيص ، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ، ودلهم عليه بأنواع الدلالات ، وفتح لهم إليه جميع الطرقات ، ثم نصب إليه الصراط المستقيم ، و عرفهم به ودلّهم عليه : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩) في التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار ، والترمذي (٣٥٣٣) في الدعوات ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٩) ، والبيهقي في الآداب (١٠٢٨) ، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٤) و(١٢٩٥) عن أبي هريرة ، وأبو يعلى في مسنده (مجمع الزوائد: ١٠/ ٢١٥) وقال الهيثمي : رجاله ثقات .

(٢) سورة الأنفال: /٤٢/ .

فـرح الله بتوبــة التــائب :

ومنها السر الأعظم ، الذي لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد ، بل شهدته قلوب خواص العباد ، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له ، وطمأنينة به وشوقاً إليه ، ولهجاً بذكره ، وشهوداً لبرِّه ، ولطفه وكرمه وإحسانه ، ومطالعة لسر العبودية ، وإشرافاً على حقيقة الإلهية ، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم ، كان على راحلة بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال ـ من شدة الفرح ـ اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] . هذا لفظ مسلم .

وفي الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ، ونحوه ، لا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله : « أنت عبدي وأنا ربك » .

ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال ، أو أعظم منها ، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منها في حال شدّة غضبه من نحو هذا الكلام ، ولا يقع طلاقه بذلك ولا رِدَّته ، وقد نصَّ الإمام أحمد علىٰ تفسير الإغلاق في قوله ﷺ : « لا طلاق في إغلاق »[2] . بأنه

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٧٦) ، وأبو داود (٢١٩٣) في الطلاق ، باب في الطلاق على غلط . وابن ماجه (٢٠٤٦) في الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي ، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٨) . والبيهقي في السنن (٧/ ٢٥٣) و(١٠/ ٦١) وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٢٤٤) و(٨/ ٤٥٧٠) .

الغضب ، وفسّره به غير واحد من الأئمة ، وفسروه بالإكراه والجنون . قال شيخنا [1] : وهو يعم هذا كله ، وهو من الغَلْق ، لانغلاق قصد المتكلم عليه ، فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله .

والقصد : أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه ، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله ، وقد كان الأولى بنا طيُّ الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم ، ونهاية أقدامهم من المعرفة ، وضعف عقولهم عن احتماله . غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها ، ومن هو عارف بقدرها ، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفاً بها ، فربَّ حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله ، وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصّه من معرفته ومحبته ، وقُربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته ـ الذين هم أهل قربه ـ استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء ، والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن

---

(١) حينما يُطلق الإمام ابن القيم كلمة شيخنا ، فإنما يريد من ذلك الإمام ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ والذي أخذ عنه الكثير ، ولازمه طوال حياته ، وأولع في كتاباته ، وانكب على دراستها ، وقام بتهذيبها ونشرها بين الناس ، وكان رفيقه في سجن قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، بل قيل : إنه طيف به على جملٍ مضروباً بالعصا!! .

أسراره ، ومحل حكمته ، وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، مداره على النوع الإنساني فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهي ، وعليه الثواب والعقاب .

عنايـة الله بالإنســان :

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة ، فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه ، إذ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذه عدواً له .

فالمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين . فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصّه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة ، التي لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه محبوباً له ، وأعدَّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه ، ويزيد محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه .

وللمحبوب عدو ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليّهم ومعبودهم الحق ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم ، وكانوا أعداء له مع هذا العدو ، يدعون إلى سخطه ، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبّونه ويكذبونه ، ويفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذىٰ ، ويجهدون على إعدامهم من الوجود

وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه ، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه ، فعرّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم ، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم .

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، و عفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، وأحبُّ ما إليه: أن يجود على عباده ويُوسعهم فضلاً، ويعمرهم إحساناً وجوداً، ويتم عليهم نعمته، ويضاعف لديهم منته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقلّ من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجود كل جواد فمن جوده، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق ،أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطي؟ ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ـ ولله المثل الأعلى ـ إذ هذا شأن الجواد من الخلق، فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطي، وابتهاجه وسروره هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه، ونفسه قد طبعت على الحرص والشح. فما الظنّ بمن تقدَّس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل

سمواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنّهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة. وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة أحبّ إليه من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع. فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنىٰ بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدىٰ، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه اتقى منه، ووالى عدوه وظاهَره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرّب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقاً شارداً، راداً لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسياً لسيده، منهمكاً في موافقة عدوه، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله: إذ عرضت له فكرة فتذكر برّ سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لابد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه؛ وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجدَّ في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه، وتوسّد ثرى أعتابه،

متذللاً متضرعاً، خاشعاً باكياً آسفاً، يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفواً، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلماً، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليّه طوعاً واختياراً، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرود وإباقة من سيده، فرأى في بعض السكك باباً قد فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مُرْتجاً فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي، أين تذهب عنّي؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: (لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة). وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام: «لله أرحم بعباده

من الوالدة بولدها»[1] وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟.

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعىٰ منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سرّ فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان، وإياك وطريقة التعطيل والتمثيل، فإن كلّاً منها منزل ذميم، ومرتع على علاته وخيم، ولا يحلّ لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونفَسه، لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد لحاسة الشم كما هو مفسد لحاسة الذوق، فلا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد ريحه، والمحروم كل المحروم من عرض عليه الغنى والخير فلم يقبله، فلا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

مثل فرح الرب بتوبة العبد:

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر، وأما إن لاحظت تعلقه بإلٰهيته وكونه معبوداً: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه وإنما يشهده خواص المحبين:

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر ونفيه ـ كما يقول أعداؤه ـ هو الباطل، والعبث الذي نزه الله

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٣٦٠) في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله، ومسلم (٢٧٥٤)، والبغوي في شرح السنة (٤١٨١) وابن أبي الدنيا في حسن الظن (١٨).

نفسه عنه، وهو السُّدى الذي نزّه نفسه عنه: أن يترك الإنسان عليه، وهو سبحانه يحب أن يُعْبدَ ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسُدى، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين، والإله الحق، فإذا خرج العبد عما خُلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خُلق عبثاً لغير شيء، إذا لم تُخرج أرضه البذر الذي وضع فيها، بل قلبته شوكاً ودَغَلاً، فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل، فاشتدت محبة الرب له، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفارق لمادة حياته وبلاغه في سفره؛ بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه، ثم وجد وصار طوع يده، فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويُعرِّضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غَرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستغيثك، ويُمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقُربك، وآثرته على سواه؟.

هذا، ولستَ الذي أوجدته وخلقته، وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده، وخلقه وكوّنه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أن يتمّها عليه، فيصير مظهراً لنعمه، قابلاً لها، شاكراً لها، محباً لوليّها، مطيعاً له عابداً له، معادياً لعدوه، مبغضاً له عاصياً له، والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يجب أن يواليَ اللهَ مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه، ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح.

وفي صفة النبي ﷺ في بعض الكتب المتقدمة (عبدي الذي سُرَّت به نفسي) وهذا لكمال محبته له، جعله مما تسر نفسه به سبحانه.

ومن هذا (ضحكه) سبحانه من عبده، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه. فيضحك سبحانه فرحاً ورضا، كما يضحك من عبده إذا ثار عن وِطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو، فأقبل إليهم، وباع نفسه لله ولقّاهم نحره، حتى قُتل في محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً، حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه، فهذا الضحك منه حباً له، وفرحاً به، وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة، فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

وليس في إثبات هذه الصفات محذور ألبتة، فإنه فرح ليس كمثله شيء، وضحك ليس كمثله شيء، وحكمه حكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته فالباب باب واحد، لا تمثيل ولا تعطيل.

وليس ما يُلزم به المعطلَ المثبتَ إلا ظلم محض، وتناقض، وتلاعب، فإن هذا لو كان لازماً للزم رحمته وإرادته ومشيئته وسمعه

وبصره، وعلمه وسائر صفاته، فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفة دون الأخرى؟ وهل يجد ذو عقل إلى الفرقة سبيلاً؟ فما ثَمَّ إلا التعطيل المحض المطلق، أو الإثبات المطلق لكل ما ورد به النص، والتناقض لا يرضاه المحصّلون.

إقامة الحجَّة على العبد بتبليغه الرسالة:

قوله (الثاني: أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته): اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان، أطاع أم عصى، فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصر عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[2].

وقال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3]. وفي الآية قولان، أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منها، الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم

---

(١) سورة الإسراء: /١٥/.
(٢) سورة الملك: /٨-٩/.
(٣) سورة هود: /١١٧/.

مصلحون الآن، أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون، فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم، والقولان في آية الأنعام أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[1]. قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم وشركهم وهم غافلون، لم يُنذروا ولم يأتهم رسول. وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول، فيكون قد ظلمهم، فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه، وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قدّره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب، وكذلك تقدير سائر الخير والشر، كجعل السم سبباً للموت، والنار سبباً للإحراق، والماء سبباً للإغراق.

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك ـ وقد عرف أنه سبب الهلاك ـ فهلك فالحجة مركبة عليه، والمؤاخذة لازمة له، كالحريق مثلاً، والذنب، كالنار، وإتيانه له، كتقديمه نفسه للنار، وملاحظة الحكم فيما لا يجدي عليه شيئاً، فإنما الذي يشهده عند قيام الحجة عليه: ملاحظة الأمر، لا ملاحظة القدر.

فجعل صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين، بل هو من ملاحظة الجناية والأمر، لكن مراده: أن سر التقدير: أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود، كالشوك الذي لا يصلح إلا

---

(١) سورة الأنعام: /١٣١/.

للنار، والشجرة تشتمل على الثمر والشوك، فاقتضىٰ عدله سبحانه أن يسوق هذا العبد إلى ما لا يصلح إلا له، وأن يقيم عليه حجة عدله، فإن قدَّر عليه الذنب فواقعه، فاستحق ما خلق له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فأخبر الله سبحانه أن الناس قسمان: حيّ قابل للانتفاع، يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة، فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه، لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان، بل لأنه غير قابل ولا فاعل، وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال:

لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك، فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل، فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وحق عليه العذاب، كقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[3]. فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]. وكلمته سبحانه،

---

(١) سورة يس: /٦٩-٧٠/.
(٢) سورة يونس: /٣٣/.
(٣) سورة المؤمن: /٦/.
(٤) سورة الزمر: /٧١/.

إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحق عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله : أن الله سبحانه ، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم ، لا مع مراد أنفسهم ، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم ، فاستحقوا كرامته ، وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده ، وعلم سبحانه منهم : أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة ، وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم ، فأمرهم ونهاهم ، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوىٰ أنفسهم ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده ، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله ، فعاقبهم بظلمهم.

النفس الأمارة بالسوء:

قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور : نظر إلى الأمر والنهي ، ونظر إلى الحكم والقضاء ، وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين . النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها ، وهو النفس الأمارة بالسوء ، ويفيد نظره إليها أموراً :

منها : أن يعرف أنها جاهلة ظالمة ، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ، وَمَنْ وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله ألبتة . فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم ، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها .

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها ، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه ربّها ومولاها ، وألاَّ يكله إليها طرفة عين ، فإنه إن وكله إليها هلك ، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه ، وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل:

اللهم ألهمني رشدي، وقني شرَّ نفسي»[1].

وفي خطبة الحاجة: «الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»[2].

---

(١) الحصين بن عبيد، وقد تحرف اسم أبيه إلى «المنذر» في المطبوعة. وهو والد عمران، اختُلف في إسلامه، فروى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن ربعي عن عمران بن حصين «أن حصيناً أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم... الحديث، وفيه: ثم إن حصيناً أسلم». وجاءه يوماً وفد من قريش فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي، فقال: أوسعوا للشيخ، وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيراً؟؟ فقال: يا حصين إن أبي وأباك في النار، يا حصين: كم تعبد من إله؟ قال: سبعاً في الأرض وواحداً في السماء، قال: فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟؟ قال: يا حصين: أسلم تسلم، قال: إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول؟ قال: «قل اللهم إني أستهديك لأرشد أمري وزدني علماً ينفعني» فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه عمران ـ ابنه ـ فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة». «الإصابة: ١/٣٣٧»، والحديث رواه أحمد في المسند (٤/٤٤٤) والترمذي (٣٤٧٩) وقال: حديث حسن، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٣) (٩٩٤).

(٢) رواه الترمذي (١١٠٥) في النكاح، وأبو داود (٢١١٨، والنسائي في السنن (٦/٨٩) وفي اليوم والليلة (٤٨٨)، وابن ماجه في سننه (١٨٩٢)، والحاكم في المستدرك (٢/١٨٢)، وأحمد في المسند (١/٣٩٣) و(١/٤٣٣).

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[2].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه: علم أنها مَنْبَعُ كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله منَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[4]. فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منَّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[5].

(عليم) بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، (حكيم) فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

ومنها ما ذكره صاحب المنازل فقال:

(اللطيفة الثانية: أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يُبقِ له حسنة بحال، لأنه يسير بين مشاهدة المنّة، وتطلّب عيب النفس والعمل).

يريد: أن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله، وهو صادق في طلبه: لم يُبقِ له نظره في سيئاته حسنة ألبتة، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس

---

(١) سورة التغابن: /١٦/.
(٢) سورة يوسف: /٥٣/.
(٣) سورة النور: /٢١/.
(٤) سورة الحجرات: /٨/.
(٥) سورة الحجرات: /٩/.

المحض ، والفقر الصَّرف ، لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله ، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله ، فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله ، فإن خَلَصَ له عملٌ وحال مع الله ، وصفَا له معه وقت شاهد منَّة الله عليه به ، ومجرد فضله ، وأنه ليس من نفسه ، ولا هي لذاك ، فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه ، ولعيوب نفسه و عمله ، لأنه متى تطلبها رآها .

وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد ، ولذلك كان سيد الاستغفار :

«اللهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، إنه لايغفر الذنوب إلا أنت»[1] .

فتضمن هذا الاستغفار : الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلٰهيته وتوحيده ، والاعتراف بأنه خالقه ، العالم به ، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه ، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته لا مهرب له منه ، ولا وليَّ له سواه ، ثم التزم الدخول تحت

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٨٣) في الدعوات ، باب أفضل الاستغفار ، والترمذي (٣٣٩٠) في الدعوات ، والنسائي (٨/ ٢٧٩) في الاستعاذة ، والبغوي في شرح السنة(١٣٠٨) ، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٥) . وقال الحافظ في الفتح : جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني ، وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار ، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه ، والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته في المغفرة . ومعنى (أبوء بذنبي) أقربه ، وأصل البواء : اللزوم ، ومعناه : أقربه وألزم نفسي .

عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذي عَهد إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك بحسب استطاعتي ، لا بحسب أداء حقك ، فإنه غير مقدور للبشر ، وإنما هو جَهْد المقلِّ ، وقدر الطاقة ، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب ، ولأهل معصيتك بالعقاب ، فأنا مقيم على عهدك ، مصدق بوعدك ، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شرّ ما فرَّطت فيه من أمرك ونُهيك ، فإنك إن لم تُعذني من شره ، وإلا أحاطت بي الهلكة ، فإن إضاعة حقك سبب الهلاك ، وأنا أقرُّ لك وألتزم بنعمتك علي ، وأقرُّ وألتزم وأبْخَعُ بذنبي ، فمنك النعمة والإحسان والفضل ، ومني الذنب والإساءة ، فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي ، وأن تعفيني من شرِّه ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار ، وهو متضمن لمحض العبودية ، فأي حسنة تبقى للبصير الصادق ، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنة الله عليه ؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه .

تدرج الشيطان في الإغواء :

النظر الرابع : نظره إلى الآمر له بالمعصية ، المزيِّن له فعلها ، الحاض له عليها ، وهو شيطانه الموكَّل به .

فيفيده النظر إليه ، وملاحظته : اتخاذَه عدواً ، وكمال الاحتراز منه ، والتحفظ واليقظة : والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر ، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عَقَبات ، بعضها أصعبُ من بعض ، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا عجز عن الظفر به فيها .

(العقبة الأولى): وهي عقبة البدعة ، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسلَ الله به رسوله ، وأنزل به كتابه ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله : من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين ، التي لا يقبل منها شيئاً ، والبدعتان في الغالب متلازمتان ، قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، كما قال

بعضهم : تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس ، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنى يعيثون في بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى[1] . وقال شيخنا : تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولّد بينهما خسران الدنيا والآخرة .

فإن قطع هذه العقبة ، وخَلَص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار ، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! .

فإن سَمَحَتْ به نَصَب له أهل البدع الحبائل ، وبَغُوه الغوائل ، وقالوا : مبتدع محدث ، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على :

(**العقبة الثانية**) : عقبة الكفر بالله وبدينه و لقائه ، وبصفات كماله ، وبما أخبرت به رسله عنه ، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَتْ نار عداوته ، واستراح ، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسلم معه نور الإيمان طلبه على :

(**العقبة الثالثة**) : وهي عقبة الكبائر ، فإن ظفر به فيها زيَّنها له ، وحَسَّنها في عينه ، وسوَّف به ، وفتح له باب الإرجاء ، وقال له : الإيمان هو نفس التصديق ، فلا تقدح فيه الأعمال[2] ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله : لا يضرّ مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة ! والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه ،

---

(١) يغلب على الظن : أن هذا من كلام الشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى .

(٢) يعني أعمال الفسوق والعصيان ، والمعنى المراد : أن الشيطان يقول له ـ عند فتح باب الإرجاء ـ إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي ، وهذا وما بعده هو معنى الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين .

لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله ، وصاحبها لا يتوب منها ، ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم ، ومعاداة صريح السنة ، ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنة ، وتولية من عزله الله ورسوله ، وعَزْل من ولاّه الله ورسوله ، واعتبار ما ردَّه الله ورسوله ، ورد ما اعتبر ، وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه ، وإثبات ما نفاه ، ونفي ما أثبته ، وتكذيب الصادق ، وتصديق الكاذب ، ومعارضة الحق بالباطل ، وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والإلحاد في دين الله ، وتعمية الحق على القلوب ، وطلب العوج لصراط الله المستقيم ، وفتح باب تبديل الدين جملة[1] ، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها ، حتى ينسلخ صاحبها من الدين ، كما تنسل الشعرة من العجين ، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر والعميان ضالون في ظلمة العمىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها ، طلبه على :

(العقبة الرابعة) : وهي عقبة الصغائر ، فكال له منها بالقُفْزان ، وقال : عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم[3] ، أوَ ما علمت بأنها تكفَّر

---

(١) وشر البدع وأنكاها : هو التقليد الأعمى ، والعمل في العقائد والعبادات والأحكام والشرائع والأذكار والأوراد بما وجد عليه الآباء والشيوخ على غير هدى ولا بصيرة ، يستمد نورها من الفقه في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ فما وقع الناس قديماً ولا حديثاً في شيء من الشرك في العبادة والشرك في الاتباع والتشريع إلا من بدعة هذا التقليد .

(٢) سورة النور : / ٤٠/ .

(٣) اللَّمم : الصغائر ، أو مقاربة الذنب ، وقيل : هو فعل الصغيرة ثم لا يعاوده . والقفزان : جمع القفيز ، وهو مكيال .

باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِرّ عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه ، فالإصرار على الذنب أقبح منه ، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ، وقد قال ﷺ:

« إياكم ومحقرات الذنوب ـ ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض ، فأعوزهم الحطب ، فجعل هذا يجيء بعود وهذا بعود ، حتى جمعوا حطباً كثيراً ، فأوقدوا ناراً ، وأنضجوا خبزتهم ، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه »[1].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار ، وأتبع السيئة الحسنة ، طلبه على:

(العقبة الخامسة): وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها ، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ما ينال منه : تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة ، والمنازل العالية ، ولو عرف السعر لما فوّت على نفسه شيئاً من القربات ، ولكنه جاهل بالسّعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٣١) وإسناده صحيح ، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٨٣) ، ورواه البغوي في شرح السنة (٤٢٠٣) عن سهل بن سعد ، وقال البغوي : هذا الحديث رواه معمر عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن ابن مسعود موقوفاً عليه . ورواه الطبراني في معاجمه الثلاثة (مجمع الزوائد : ١٠/ ١٨٠) من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن الحكم ، وهو ثقة .

المشتري ، وقدر ما يعوض به التجار ، فبخل بأوقاته ، وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح ، طلبه العدو على :

(العقبة السادسة): وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، فأمره بها ، وحسنها في عينه ، وزينها له ، وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عمَّا هو أفضل منها ، وأعظم كسباً وربحاً ، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب ، طمع في تخسيره كماله وفضله ، ودرجاته العالية ، فشغله بالمفضول عن الفاضل ، والمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه ، وبالمرضي عن الأرضى له .

ولكن أين أصحاب هذه العقبة ؟ فهم الأفراد في العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول .

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤوسها ، وسيدها ومسودها ، فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً ، ورئيساً ومرؤوساً ، وذروة وما دونها ، كما في الحديث الصحيح :

« سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت . . . الحديث»[1] .

وفي الحديث الآخر ، يقول سيدنا محمد ﷺ : «الجهاد ذروة سنام الأمر»[2] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) نص الحديث « سئل رسول الله ﷺ : أي العمل خير؟ فقال : إيمان بالله =

وفي الأثر الآخر : (إن الأعمال تفاخرت ، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن) .

ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذي حق حقه . فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها : ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه ، وأكرم الخلق عليه ، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبته في الخير ، فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله ، وظاهرَ عليه بجنده ، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط ، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها ، فإنه كلما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جدَّ العدو في إغراء السفهاء به ، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله ، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين ، وهي تسمى : عبودية المراغمة ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ، ولاشيء أحب إلى الله من مراغمة وليّه لعدوه ، وإغاظته له ، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه .

أحدهما : قوله :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[1] ، سمّى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه ، والله

= ورسوله ، قال : ثم أي يا رسول الله؟ قال : الجهاد في سبيل الله سنام العمل ، قال : ثم أي يا رسول الله؟ قال : حج مبرور » . اللفظ رواه أحمد في المسند (٢/٢٨٧/ ، والترمذي (١٦٥٨) في فضائل الجهاد، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) سورة النساء : /١٠٠/ .

يحبُّ من وليّه مراغمة عدوه ، وإغاظته ، كما قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى في مَثل رسول الله ﷺ وأتباعه :

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[2] ، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له ، فموافقته فيها بين كمال العبودية وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين ، وقال : «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»[3] .

وفي رواية أخرى «ترغيماً للشيطان» وسماهما «المرغمتين» .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر ، وعلى قدر محبة العبد لربه ، وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة ، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفَّين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله ، لما في ذلك من إرغام العدو ، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه

---

(١) سورة التوبة : /١٢٠/ .

(٢) سورة الفتح : /٢٩/ .

(٣) رواه بلفظه ابن ماجه(٢١٠) في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، من حديث زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ولذته بكى على أيامه الأوَل ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى .

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهزىء بها ، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر ألبتة ـ ولله الحمد والمنة ـ وبه التوفيق .

قال صاحب المنازل :

(اللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم) .

هذا الكلام ـ إن أخذ على ظاهره ـ فهو من أبطل الباطل ، الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنُسب إلى لازم هذا الكلام ، ولكن من عدا المعصوم ـ ﷺ ـ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ومن ذا الذي لم تَزِلَّ به القدم ، ولم يكبُ به الجواد ؟

ومعنى هذا : أن العبد مادام في مقام التفرقة ، فإنه يستحسن بعض الأفعال ويستقبح بعضها ، نظراً إلى ذواتها وما افترقت فيه ، فإذا تجاوزها إلى مصدرها الأول ، وصدورها عن عين الحكم ، واجتماعها كلها في تلك العين ، وانسحاب ذيل المشيئة عليها ، ووحدة المصدر ، وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة فهي بالنسبة إلى مصدر الحكم ، وعين المشيئة : لا توصف بحسن ولا قبح ، إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون ، وجريانها عليه ، فهي بمنزلة نور الشمس واحد في نفسه غير متلون ، ولا يوصف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة ، فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك

المحال ، لإضافته إليها ، واتصاله بها ، فيُرى أحمر وأصفر وأخضر ، وهو بريء من ذلك كله إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول المجرد عن القوابل ، فهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه .

على أن له محملاً آخر مبنياً على أصول فاسدة ، وهي أن إرادة الرب تعالى هي عين محبته ورضاه ، فكل ما شاءه فقد أحبه ورضيه ، وكل ما لم يشأه فهو مسخوط له مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو ما لم يشأه ، والمحبوب المرضي هو ما شاءه .

هذا أصل عقيدة القدرية الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب، وتحسين العقل وتقبيحه، وإن الأفعال كلها سواء لا يختص بعضها بما صار حسناً لأجله، وبعضها بما صار قبيحاً لأجله، ويجوز في العقل أن يأمر بما نهى عنه، وينهى عما أمر به، ولا يكون ذلك مناقضاً للحكمة .

إذاً الحكمة ترجع عندهم إلى مطابقة العلم الأزلي لمعلومه ، والإرادة الأزلية لمرادها ، والقدرة لمقدورها ، فإذا الأفعال بالنسبة إلى المشيئة والإرادة مستوية ، لا توصف بحسن ولا قبح ، فإذا تعلق بها الأمر والنهي صارت حينئذٍ حسنة وقبيحة وليس حسنها وقبيحها أمراً زائداً على كونها مأموراً بها ومنهياً عنها ، فعلى هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهي إلى جمع المشيئة والحكم ، لم يستحسن حسنة ، ولم يستقبح قبيحة . فإذا نزل فَرْقَ الأمر : صح له الاستحسان والاستقباح ، فهذا محمل ثانٍ لكلامه .

وله محمل ثالث ـ هو أبعد الناس منه ، ولكن قد حُمل عليه ـ وهو أن السالك مادام محجوباً عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية ، رأى الأفعال بعين الحسن والقبح ، فرأى منها الطاعة والمعصية ، فإذا ترقَّى إلى شهود الحقيقة الأولى ، وهي الحقيقة الكونية ، ورأى شمول الحكم الكوني للكائنات وإحاطته بها ، وعدم خروج ذرة منها عنه ، زال عنه

استقباح شيء من الأفعال ، وشهدها كلها طاعات الأقدار والمشيئة[1] ، وفي مثل هذه الحال يقول : إن كنت عصيت الأمر فقد أطعت الإرادة ويقول :

أصبحت منفعلاً لما تختاره منِّي ، ففعلي كله طاعات

فإذا ترقى مرتبة أخرى ، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد ـ كما زال عنه في المرتبة الثانية : الفرق بين المحبوب والمسخوط ، والمأمور والمحظور ـ قال: ما ثمَّ طاعة ولا معصية ، إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة ، والمطيع عين المطاع ، فما ههنا غير ، فالوحدة المطلقة تنفي الطاعة والمعصية ، فالصعود من وحدة الفعل إلى وحدة الوجود ، يزيل عنه ـ بزعمه ـ توهم الانقسام إلى طاعة ومعصية ، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلى وحدة الحكم ، يزيل عنه ثبوت المعصية.

وهذا عند القوم من الأسرار التي لا يتجيزون كشفها إلا لخواصهم ، وأهل الوصول منهم [2].

---

(١) أو هو على الأصل عندهم: أن الحكم الطبيعي في أن وجود كل شيء هو وجود ربهم، فليس ثم قبيح ولا حسن، لأن كل تطور وصفة فهي طبيعية، ليست بفعل فاعل مختار.

(٢) في هامش الأصل ما نصَّه : بئست الأسرار هذه ، فهي عين الكفر والإلحاد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، بل نشهد أن الله عز وجل بائن من خلقه ، مستو على عرشه ، ليس في خلقه شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من خلقه ، وأنه يحب الطاعة وأهلها ويثيبهم عليها ، ويكره المعاصي ويبغض أهلها ويعاقبهم عليها ، أو يغفرها إن شاء ، ويتوب على من تاب ، فاحذر هذه الطريقة ، فإنها طريقة الاتحادية القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثمَّ رب وعبد ، تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً .

لكن صاحب المنازل بريء من هؤلاء وطريقتهم ، وهو مكفِّر لهم ، بل مخرج لهم من جملة الأديان ، ولكن ذكرنا ذلك ، لأنهم يحملون كلامه عليه ، ويظنونه منهم ، فاعلم أن هذا مقام عظيم ، زلت فيه أقدام طائفتين من الناس: طائفة من أهل الكلام والنظر ، وطائفة من أهل السلوك والإرادة.

فنفى لأجله كثير من أنظار التحسين والتقبيح العقليين ، وجعلوا الأفعال كلها سواء في نفس الأمر ، وأنها غير منقسمة في ذواتها إلى حسن وقبيح ، ولا يميز القبيح بصفة اقتضت قبحه ، بحيث يكون منشأ القبح ، وكذلك الحسن . فليس للفعل عندهم منشأ حسن ولا قبح ، ولا مصلحة ولا مفسدة ، ولا فرق بين السجود للشيطان، والسجود للرحمن في نفس الأمر، ولا بين الصدق والكذب، ولا بين السفاح والنكاح ، إلا أن الشارع حرم هذا وأوجب هذا .

فمعنى حسنه: كونه مأموراً به ، لا أنه منشأ مصلحة ، ومعنى قبحه : كونه منهياً عنه ، لا أنه منشأ مفسدة ، ولا فيه صفة اقتضت قبحه ، ومعنى حسنه : أن الشارع أمر به ، لا أنه منشأ مصلحة ، ولا فيه صفة اقتضت حسنه .

بطلان نفي التحسين والتقبيح :

وقد بيَّنا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً في كتابنا المسمى (تحفة النازلين بجوار رب العالمين) وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك ، وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب ، وبينا بطلانه.

فإن هذا المذهب ـ بعد تصوره ، وتصور لوازمه ـ يجزم العقل ببطلانه ، وقد دلَّ القرآن على فساده في غير موضع ، والفطرة أيضاً وصريح العقل .

فإن الله سبحانه فَطَرَ عباده على استحسان الصدق والعدل ، والعفة

والإحسان ، ومقابلة النعم بالشكر ، وفَطَرهم على استقباح أضدادها ، ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم ، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النَّتن إلى مشامِّهم ، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم ، وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة ، فيفرقون بين طيبه وخبيثه ، ونافعه وضارِّه .

وقد زعم بعض نُفاة التحسين والتقبيح : أن هذا متفق عليه ، وهو راجع إلى الملاءمة والمنافرة ، بحسب اقتضاء الطباع ، وقبولها للشيء ، وانتفاعها به ، ونفرتها من ضدّه.

قالوا: هذا ليس الكلام فيه، وإنما الكلام في كونه الفعل متعلقاً للذم والمدح عاجلاً ، والثواب والعقاب آجلاً ، فهذا الذي نفيناه ، وقلنا: إنه لا يعلم إلا بالشرع ، وقال خصومنا: إن معلوم بالعقل ، والعقل مقتضٍ له.

فيقال: هذا فرار من الزحف ، إذ ههنا أمران متغايران لا تلازم بينهما ، أحدهما: هل الفعل نفسه مشتمل على صفة اقتضت حسنه وقبحه ، بحيث ينشأ الحسن والقبح منه ، فيكون منشأ لهما أم لا؟. والثاني: أن الثواب المرتب على حسن الفعل ، والعقاب المرتب على قبحه ثابت ـ بل واقع ـ بالعقل ، أم لا يقع إلا بالشرع؟.

ولما ذهب المعتزلة[1] ، ومن وافقهم إلى تلازم الأصلين استطلتم

---

(١) فرقة كلامية إسلامية، ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول، يرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء مجلس التابعي المشهور الحسن بن يسار البصري، لقول «واصل» بأن مرتكب الكبيرة ليس كافراً ولا مؤمناً بل هو في منزلة بين المنزلين، ولما اعتزل واصل مجلس «الحسن» وجلس (عمرو بن عبيد بن باب) إلى =

عليهم ، وتمكنتم من إبداء تناقضهم وفضائحهم ، ولما نفيتم أنت الأصلين جميعاً استطالوا عليكم ، وأبدوا من فضائحكم وخلافكم لصريح العقل والفطرة ما أبدوه ، وهم غلطوا في تلازم الأصلين ، وأنت غلطتم في نفي الأصلين.

والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل: أنه لا تلازم بينهما ، وأن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة ، كما أنها نافعة وضارة ، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات ، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي ، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحاً موجباً للعقاب مع قبحه في نفسه ، بل هو في غاية القبح ، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل ، فالسجود للشيطان والأوثان ، والكذب والزنى ، والظلم والفواحش ، كلها قبيحة في ذاتها ، والعقاب عليها مشروط بالشرع.

فالنفاة يقولون: ليست في ذاتها قبيحة، وقبحها والعقاب عليها إثم، إنما ينشأ بالشرع.

والمعتزلة تقول: قبحها والعقاب عليها ثابتان بالعقل.

وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون قبحها ثابت بالعقل ، والعقاب متوقف على ورود الشرع ، وهو الذي ذكره سعد بن

= «واصل» وتبعهما أنصارهما قيل لهم: معتزلون أومعتزلة.
وامتازت هذه الفرقة بحرية الفكر والاعتداد بالعقل وقوة الحجة، وللمعتزلة أصول خمسة يدور عليها مذهبهم وأهمها: العدل والتوحيد، ولذلك اشتهروا بأنهم أهل العدل والتوحيد.
(الموسوعة العربية الميسرة: ١٧١٨).

علي الزنجاني[1] من الشافعية، وأبو الخطاب[2] من الحنابلة ، وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة [3] نصاً ، لكن المعتزلة منهم

---

(١) هو سعد بن علي بن محمد بن علي الزَّنجاني، أبو القاسم الصوفي:
ولد سنة (٣٨٠هـ) تقريباً، وسمع من العلماء، ثم جاور، بمكة، وصار شيخ حرمها، وقال أبو سعد: كان سعد حافظاً متقناً، ثقة، ورعاً، كثير العبادة ، صاحب كرامات وآيات ، وإذا خرج إلى الحرم يخلو المطاف ، ويقبلون يده أكثر مما يقبلون الحجر الأسود .
قال إسماعيل بن محمد التيمي : إمام كبير ، عارف بالسنة .
ولسعد قصيدة في قواعد أهل السنة وهي :

تدبر كلام الله واعتمد الخبر ودع عنك رأياً لا يلائمه أثر
ونهج الهدى فالزمه واقتد بالألى هم شهدوا التنزيل علك تنجبر
وكن موقناً أنّا وكلّ مكلّف أمرنا بقفو الحق والأخذ بالحذر

توفي سنة (٤٧١هـ) .
« سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٣٨٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرى : ٣٨٣/٤) » ، و« شذرات الذهب : ٣/ ٣٣٩) .

(٢) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني ، أبو الخطاب .
شيخ إمام الحنبلية في عصره . أصله من كلوذاي (من ضواحي بغداد) ، ومولده ووفاته ببغداد . كان فقيهاً صالحاً ، ورعاً عابداً ، حسن العشرة ، وله اشتغال بالأدب ونظم . توفي (٥١٠هـ) . من كتبه « التمهيد » و« الانتصار في المسائل الكبار » و« عقيدة أهل الأثر » .
« سير أعلام النبلاء : ١٩/ ٣٤٨) و« ذيل طبقات الحنابلة : ١/ ١١٦ » و« الأعلام : ٥/ ٢٩١ » .

(٣) هو النعمان بن ثابت الكوفي :
إمام الحنفية ، الإمام المجتهد المحقق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ولد ونشأ بالكوفة ، وكان يبيع الخز ويطلب الإفتاء في صباه ، ثم انقطع للتدريس والإفتاء ، وكان قوي الحجّة ، من أحسن الناس منطقاً ، وكان كريماً جواداً ، جهوري الصوت . توفي (١٥٠هـ) . =

يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل .

وقد دلّ القرآن ألاَّ تلازم بين الأمرين ، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل . وأن الفعل نفسه حسن وقبيح ، ونحن نبيّن دلالته على أمرين :

أما (الأول) : في قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١) .

وفي قوله :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) .

وفي قوله :

﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ . (٣)

فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل ، بل للنذر ، وبذلك دخلوا النار ، وقال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى في سورة الزمر :

= « تاريخ بغداد : ١٣/ ٣٢٣ » ، « البداية والنهاية : ١٠/ ١٠٧ » « الجواهر المضية : ١/ ٢٦ » و« الأعلام ٨/ ٣٦ » .

(١) سورة الإسراء : / ١٥/ .

(٢) سورة النساء : / ١٦٥/ .

(٣) سورة الملك : / ٨ ـ ٩/ .

(٤) سورة الأنعام : / ١٣٠/ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (١) .

ثم قال في الأنعام بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ (٢) .

وعلى أحد القولين ـ وهو أن يكون المعنى : لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل ـ فتكون الآية دالة على الأصلين : أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة .

وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال ، وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين نظير الآية التي في القصص :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

فهذا يدل على أن ما قدمَّت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم ، ولولا قبحه لم يكن سبباً ، لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها ، وهو عدم مجيء الرسول إليهم ، فمنذ جاء الرسول انعقد السبب ووجد الشرط ، فأصابهم سيئات ما عملوا ، وعوقبوا بالأول والآخر .

الأدلّـة القرآنيـة بحسن الأفعـال وقبحهـا :

وأما الأصل (الثاني) : ـ وهو دلالته على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح ـ فكثير جداً ، كقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ

---

(١) سورة الزمر : / ٧١/ .
(٢) سورة الأنعام : / ١٣١/ .
(٣) سورة القصص : / ٤٧/ .

بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه ، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة ، و(الفاحشة) ههنا هي طوافهم بالبيت عُراة ـ الرجال والنساء ـ غير قريش (٢) ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي : لا يأمر بما

---

(١) سورة الأعراف : /٢٨ ـ ٣٣/ .

(٢) كانت قريش هي التي تقوم بتطويف الحجاج والمعتمرين ، وقيادتهم في كل مناسك الحج وشعائره ، ويأخذون منهم ما يعيشون به ، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فرزقهم الله مما أهوت إليهم أفئدتهم ، ولكن أكثرهم لم يقم الصلاة كما أحب الله ولا شكر لله ، بل كفروا ، واتخذوا الآلهة والأنداد من الموتى ، فكان صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين ، وكان الشيطان مولاهم من دون الله . فقلل في أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق ، وأوحى إليهم أن يشرعوا للناس بدعة فاحشة : ألاَّ يطوف أحد بالبيت إلا في ثياب من عند قريش الحمس ، وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقى تحت أقدام الطائفين حول الكعبة ، فانقاد الناس لهم بالتقليد ، وأصبح مورداً لقريش يتحكمون به في الناس كما يشاؤون ، ثم أوحي إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال الناس ، حتى عجز أكثر الناس ، وطلبوا من السادة المستكبرين الرخصة عن =

هو فاحشة في العقول والفطر : ولو كان إنما عُلم كونه فاحشة بالنهي ، وأنه لا معنى لكونه فاحشة ، إلا تعلق النهي به ، لصار معنى الكلام : إن الله لا يأمر بما ينهى عنه ، وهذا يصان عن التكلّم به آحاد العقلاء فضلاً عن كلام العزيز الحكيم ، وأي فائدة في قوله : (إن الله لا يأمر بما ينهى عنه)؟ فإنه ليس لمعنى كونه (فاحشة) عندهم إلا أنه منهيٌّ عنه ، لا أن العقول تستفحشه .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ والقسط عندهم : هو المأمور به ، لا أنه قسط في نفسه ، فحقيقة الكلام : قل أمر ربي بما أمر به .

ثم قال ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ ﴾ دلّ على أنه طيب قبل التحريم ، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريم مناف للحكمة .

ثم قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها وليست فواحش قبل ذلك ، لكان حاصل الكلام : قل إنما حرم ربي ما حرّم ، وكذلك تحريم الإثم والبغي ، فكون ذلك فاحشة وإثماً وبغياً بمنزلة كون الشرك شركاً ، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده .

فمن قال : إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي ، فهو بمنزلة من يقول : الشرك إنما صار شركاً بعد النهي ، وليس شركاً قبل ذلك، ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة ، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده ، والقبح قبح في نفسه قبل النهي وبعده ، والفاحشة كذلك ، وكذلك الشرك ، لا أنّ هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك .

= الثمن ، فقالوا : لا بد من ذلك ، وإلا فطوفوا عراةً ، فطافوا عراة!!

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحاً إلى قبحها ، فكان قبحها من ذاتها ، وازدادت قبحاً عن العقل بنهي الرب تعالى عنها ، وذمه له ، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها ، كما أن العدل والصدق والتوحيد ، ومقابلة نِعَم المنعم بالثناء ، والشكر : حسن في نفسه ، وازداد حسناً إلى حسنه بأمر الرب به ، وثنائه على فاعله ، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله .

بل من أعلام نبوة محمدﷺ : أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، و يحلّ لهم الطيبات ، ويحرم عليها الخبائث .

فلو كان كونه معروفاً ومنكراً أو خبيثاً وطيباً إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به ، لكان بمنزلة أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به ، وينهاهم عما ينهاهم عنه ، ويحل لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم!

وأي فائدة في هذا؟ وأي عَلَم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك ، وأن يُظن به ذلك ، وإنما المدح والثناء والعَلَم الدال على نبوته : أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنهُ وكونه معروفاً ، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً ، وما يحل تشهد كونه طيباً ، وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً ، وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين ، والكذابين والسحرة ، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم .

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم ، لما عرف دعوته ﷺ ـ: عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟

قال : ما أمر بشيء ، فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيء ، فقال العقل : ليته أمر به ، ولا أحلّ شيئاً ، فقال العقل : ليته حرمه ، ولا حرّم شيئاً ، فقال العقل : ليته أباحه .

فانظر إلى هذا الأعرابي ، وصحة عقله وفطرته ، وقوة إيمانه ، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل ، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ، ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث : مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به : لم يحسن منه هذا الجواب ، ولكان بمنزلة أن يقول : وجدته يأمر وينهي ، ويبيح ويحرم ، وأي دليل في هذا؟

كذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ (١) .

وهؤلاء يزعمون : أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهيّ عنه ، لا أن هناك في نفس الأمر ظلماً نهى عنه ، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل ، لا أن هناك أمراً ممكناً مقدوراً لو فعله لكان ظلماً ، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ، ولا منزّه عنه ، إنما هو المحرم في حقه ، والمستحيل في حقه ، فالظلم المنزه عنه عندهم : هو الجمع بين النقيضين ، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد ، ونحو ذلك .

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضاً ، قال الله تعالى :

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢) أي : لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب ، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح ، ولهذا قال قبله : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ المتضمن لإقامة الحجة ، وبلوغ الأمر

---

(١) سورة النحل : / ٩٠/ .

(٢) سورة ق : / ٢٧ ـ ٢٩/ .

والنهي ، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم ، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (١) .

يعني: لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله ، ولا ينتقص من حسنات ما عمل ، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده : لم يكن لعدم الخوف منه معنى ، ولا للأمن من وقوعه فائدة ، وقال تعالى :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٣) .

أي: لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله ، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله ، فدلّ على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظلماً ، وعندهم يجوز ذلك ، وليس بظلم لو فعل ، ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم ، وعلم أنه لا يفعل ذلك ، وخلاف خبره ومعلومه مستحيل ، وذلك حقيقة الظلم ، ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعاً ، ولا أريد بها ، ولا تحتمله بوجه ، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون ، وكلامه تعالى يتنزّه عن هذا ويتعالى عنه .

---

(١) سورة طه : /١١٢/ .
(٢) سورة فصلت : /٤٦/ .
(٣) سورة هود : /١١٧/ .

تـنـزّه الخـالق عـن الظـلـم :

وكذلك عند هؤلاء أيضاً : العبث والسُّدَى والباطل ، كلها هي المستحيلات الممتنعة التي لا تدخل تحت المقدور . والله سبحانه قد نَزَّه نفسه عنها .

إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده ، المنكرون لأمره ونهيه، فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثاً وباطلاً ، وحكمته وعزته تأبى ذلك . قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١) أي لغير شيء ، لا تؤمرون ولا تنهون ، ولا تثابون ولا تعاقبون .

والعبث قبيح ، فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول ؛ ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم .

وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به ، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً ، لا لأمر ولا لنهي ، ولا لثواب ولا لعقاب ، وهذا يدلّ على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر .

وأن من جَوَّزَ على الله الإخلال به فقد نسبه إلى ما لا يليق به ، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٢) .

قال الشافعي : مهملاً لا يؤمر ولا ينهى . وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب، وهما متلازمان . فأنكر على من يحسب ذلك . فدل على أنه

---

(١) سورة المؤمنون : الآية /١١٥/ .
(٢) سورة القيامة: الآية /٣٦/ .

قبيح تأباه حكمته ، وأنه لا يليق به . ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدى بقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [1] إلى آخر السورة . ولو كان قبحه إنما علم بالسمع لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع ، وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به .

ولم يكن إنكاره لكونه قبيحاً في نفسه ، بل لكونه خلاف ما أخبر به ، ومعلوم أن هذا ليس وجه الكلام .

وكذلك قوله :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [2] والباطل الذي ظنوه : ليس هو الجمع بين النقيضين ، بل الذي ظنوه : أنه لا شرع ولا جزاء ، ولا أمر ولا نهي ، ولا ثواب و لاعقاب .

فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه . وذلك هو الحق الذي خلقت به وهو التوحيد . وحقه وجزاؤه وجزاء من جحده ، وأشرك بربه . وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [3] فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه ، وأنه حُكم سَيِّىء ، والحاكم به مسيء ظالم . ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء ، المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم . ولا كان هنا حكم سيِّىء، في نفسه ينكر على من حكم به، وكذلك قوله :

---

(١) سورة القيامة : الآية / ٣٧ ـ ٣٨ / .
(٢) سورة ص : الآية / ٢٧/ .
(٣) سورة الجاثية : الآية / ٢١/ .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (١) .

وهذا استفهام إنكار ، فدل على أن هذا قبيح في نفسه ، منكر تنكره العقول والفطر ، أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه ، وأنه لا يليق بالله نسبته إليه .

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في إلهيته ، وعبادة غيره معه بما ضربه لهم من الأمثال ، وأقام على بطلانه من الأدلة العقلية ، ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنى .

وعند نفاة التحسين والقبيح : يجوز في العقل أن يأمر بالإشراك به وبعبادة غيره! وإنما عُلم قبحه بمجرد النهي عنه!

فيا عجباً! أي فائدة تبقى في تلك الأمثال والحجج ، والبراهين والأدلة على قبحه في صريح العقول والفطر؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم؟ وأي شيء يصح في العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي ، وأن العلم بقبحه بديهي معلوم بضرورة العقل ، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرهم من قبحه ، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة ، بل نفى عنهم السمع والبصر . والمراد : سمع القلب وبصره : فأخبر أنهم صم بكم عمي ، وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق . وشبههم بالأنعام التي لا عقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح ، والحق والباطل ؛ ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل (٢) وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم

---

(١) سورة ص : الآية /٢٨/ .

(٢) يقول الله عنهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا

وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم .

قال الله تعالى حاكياً عنهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وكم يقول لهم في كتابه :

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

فينبههم على ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح ، ويحتج عليهم بها ويخبر أنه أعطاهموها لينفعوا بها ، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل .

وكم في القرآن من مثلٍ عقلي وحسّي ينبه به العقول على حسن ما أمره به ، وقبح ما نهى عنه ، فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى ، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي ، دون ضرب الأمثال وتبيين جهة القبح المشهودة بالحسن والعقل .

= وَسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ويقول : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ إذا عطّلوا نعم الله عليهم في السمع والبصر والفؤاد بالتقليد الأعمى للآباء والشيوخ ، فكانوا غافلين عن سنن الله وآياته فيهم ورسالاته العلمية لهم ، زاعمين أن الله حرم عليهم النظر والتفكر والفهم لرسالاته . لأنه ظلمهم فحرمهم من أسباب الفهم ، وأغلق دونهم بابه . فلما تبين لهم يومئذ ضلالهم قالوا للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنّا نصيبنا من النار؟ قال الذي استكبروا : إنا كلّ فيها . إن الله قد حكم بين العباد .

(١) سورة الملك : الآية / ١٠/ .

أمثال القرآن :

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره كقوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [1] ﴾ .

يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكاً له . وفإذا كان أحدهم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ، ولا يرضى بذلك ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر .

والسمع نبَّه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة ، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له . فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان .

وكذلك قوله تعالى: ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل[3] والمنِّ

---

(١) سورة الروم : الآية /٢٨/ .

(٢) سورة الزمر : الآية /٢٩/ .

(٣) سورة البقرة الآية : /٢٦٤/ وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ=

والأذى المبطل للصدقات ؛ بـ « الصفوان » وهو الحجر الأملس « عليه تراب » غبار قد لصق به « فأصابه مطر » شديد فأزال ما عليه من التراب « فتركه صَلداً » أملس لا شيء عليه . وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه .

فـ« الصفوان » وهو الحجر ، كقلب المرائي والمانّ والمؤذي . و« التراب » الذي لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته ، و« الوابل » المطر الذي به حياة الأرض . فإذا صادفها ليِّنة قابلة : نبت فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصُّم : لم ينبت فيها شيئاً . فجاء هذا الوابل الذي على الحجر ، فصادفه رقيقاً ، فأزاله فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات. وهذا يدل على أن قبح « المنّ ، والأذى ، والرياء » مستقر في العقول، فلذلك نبهها على شبهه ومثاله .

وعكس ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

فإن كانت هذه الجنة ـ التي بموضع عال ، حيث لا تُحجب عنها الشمس والرياح ، وقد أصابها مطر شديد، فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يخرج غيرها ـ إن كانت مستحسنة في العقل والحس ، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله ، لا لجزاء من الخلق ولا لشكور ، بل بثباتٍ من نفسه ، وقوة على الإنفاق لايخرج النفقة وقلبه يَرْجُف على خروجها،

= كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

(١) سورة البقرة : الآية / ٢٦٥/ .

ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين : كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت : كمثل الوابل ، ومثل نفقة الآخر كمثل الطل ، وهو المطر الضعيف . فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه . أفلا تراه سبحانه نبَّه العقول على ما فيها من استحسان هذا ، واستقباح فعل الأول؟ وكذلك قوله :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات ، وشبَّهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء ، بحيث يخشى عليهم الضَّيعة وعلى نفسه . وله بستان هو مادّة عيشه وعيش ذريته . فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات، فأرجى وأفقر ما هو له وأسرُّ ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته . فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال . وبهذا فسرها عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم « لرجل غني عمل بطاعة الله زماناً ، فبعث الله له الشيطان : فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله » (٢)

---

(١) سورة البقرة : الآية /٢٦٦/ .

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٥١) في تفسير سورة البقرة ، باب قوله : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ .
وقال ابن حجر :
وقوله (أغرق ماله): أي أعماله الصالحة.
وأخرج ابن المنذر هذا الحديث من وجه آخر عن ابن أبي مليكة وعنده بعد =

ذكره البخاري في صحيحه .

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة ، وضرب لقبحها هذا المثل؟

ونفاة التعليل والأسباب والحِكَم ، وحسن الأفعال وقبحها يقولون : ما ثم إلا محض المشيئة ، لا أن بعض الأعمال يبطل بعضاً ، وليس فيها ما هو قبيح لعينه حتى يشبه بقبيح آخر . وليس فيها ما هو منشأ لمفسدة أو مصلحة تكون سبباً لها ، ولا لها علل غائية هي مفضية إليها ، وإنما هي متعلَّق المشيئة ، والإرادة والأمر والنهي فقط .

رأي الفقه والطب :

والفقهاء لايمكنهم البناء على هذه الطريقة ألبتة ، فكلهم مجمعون ـ إذا تكلموا بلسان الفقه ـ على بطلانها . إذ يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم . ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة . والمفاسد التي هي كذلك . ويقدمون أرجح المصلحين على مرجوحهما . ويدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما . ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل ، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال ، معرفة ربها .

وكذلك الأطباء لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوى الأدوية والأمزجة والأغذية وطبائعها . ونسبة بعضها إلى بعض ومقدار تأثير بعضها في بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، والموازنة بين قوة

= قوله (أي عمل) قال ابن عباس : شيء ألقي في روعي ، قال : صدقت يا بن أخي .

ومعنى : (أغرق أعماله) : أي أضاع أعماله الصالحة بما ارتكب من المعاصي .

الدواء وقوة المرض وقوة المريض . ودفع الضد بضده . وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبه . فصناعة الطب وعمله مبني على معرفة الأسباب والعلل ، والقوى والطبائع والخواص ، فلو نفوا ذلك وأبطلوه وأحالوا على محض المشيئة وصِرْف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل . وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء ، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس في أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر : لفسد علم الطب ، ولبطلت حكمة الله فيه . بل العالم مربوط بالأسباب والقوى ، والعلل الفاعلية والغائية .

وعلى هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم ، والكل مربوط بقضائه وقدره ومشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا شاء سلب قوة الجسم الفاعل منه ومنع تأثيرها . وإذا شاء جعل في الجسم المنفعل قوة تدفعها وتمنع موجبها مع بقائها .

وهذا لكمال قدرته ونفوذ مشيئته .

والناس في الأسباب والقوى والطبائع ثلاثة أقسام :

منهم : من بالغ في نفيها وإنكارها ، فأضحك العقلاء على عقله ، وزعم أنه بذلك ينصر الشرع ، فجنى على العقل والشرع ، وسلط خصمه عليه .

ومنهم : من ربط العالم العلوي والسفلي بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل مختار ، ومدبر لها يصرفها كيف أراد ، فيسلب قوة هذا ويقيم لقوة هذا قوة تعارضه ، ويكف قوة هذا عن التأثير مع بقائها، ويتصرف فيها كما يشاء ويختار .

وهذان طرفان جائران عن الصواب .

ومنهم : من أثبتها خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً ، وأنزلها بالمحل الذي أنزلها الله به ، من كونها تحت تدبيره ومشيئته ، وهي طوع المشيئة

والإرادة ، ومحل جريان حكمها عليها ، فيقوي سبحانه بعضها ببعض ، ويبطل ـ إن شاء ـ بعضها ببعض ، ويسلب بعضها قوته وسببيته ، ويُعرِيها منها ، ويمنعه من موجبها مع بقائها عليه ، ليعلم خلقه أنه الفعال لما يريد، وأنه لا مستقل بالفعل والتأثير غير مشيئته ، وأن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت ، مع كونه سبباً ، وهذا باب عظيم نافع في التوحيد ، وإثبات الحِكَم ، يوجب للعبد ـ إذا تبصر فيه ـ الصعود من الأسباب إلى مسببها . والتعلق به دونها ، وأنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضاراً وضارها نافعاً ، ودواءها داء ، وداءها دواء . فالالتفات إليه بالكلية شرك مناف للتوحيد ، وإنكار أن تكون أسباباً بالكلية قدح في الشرع والحكمة . والإعراض عنها ـ مع العلم بكونها أسباباً ـ نقصان في العقل . وتنزيلها منازلها ، ومدافعة بعضها ببعض ، وتسليط بعضها على بعض ، وشهود الجمع في تفرقها ، والقيام بها : هو محض العبودية ، والمعرفة ، وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة ، والله أعلم .

غلط السالكين :

وأما غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة في هذا الباب : فحيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية ، والفناء في توحيد الربوبية ، من مقامات العارفين ، بل أجلُّ مقاماتهم ، فساروا شائمين لبرق هذا الشهود ، سالكين لأدوية الفناء فيه ، وحَثَّهم على هذا السير ، ورغَّبهم فيه : ما شهدوه من حال أرباب الفرق الطبعي فأنفوا من صحبتهم في الطريق ، ورأوا مفارقتهم فرض عين لا بد منه . فلما عرض لهم الفرق الشرعي في طريقهم ، ورد عليهم منه أعظم وارد فرَّق جمعيتهم، وقسَّم وحدة عزيمتهم ، وحال بينهم وبين عين الجمع ، الذي هو نهاية منازل سيرهم ، فافترقت طرقهم في هذا الوارد العظيم .